دور نظريات ومناهج آثارية في تفسير المدافن في السودان القديم

أزهري مصطفى صادق و جمال جعفر عــباس

ملخّص: تعد المدافن من أهم المصادر الآثارية المتعلقة بمناحي حياة الإنسان القديم. كما تعد المدافن السليمة ومحتوياتها وحدات حضارية، ولا غنى عنها لأيّ تحليل آثاري. وطبقاً للمصادر الآثارية، هناك أعداداً كبيرة من المدافن في السودان أكثر مما هو منشور في التقارير المتاحة حالياً. وعلى النقيض من ذلك ، فهناك القليل جداً من النظريات والمناهج الآثارية المستخدمة، كأساس لدراسة هذه المدافن. في هذه الورقة سنناقش دور بعض هذه النظريات والمناهج في تفسير المدافن السودانية القديمة، في الفترة الممتدة ما بين ١٣٠٠٠ قبل الميلاد و٥٨٠ م.

Abstract. *The most important archaeological source material related to the ancient people came from cemeteries. The undisturbed burials and their finds may be regarded as cultural units, indispensable for any serious archaeological analysis. According to archaeological sources, there are a substantially greater number of graves in Sudan than what currently available archaeological literature would suggest. In contrast, there are very few archaeological theories and approaches which are used as a base of study of these cemeteries. In this paper we will discuss the role of archaeological theories and approaches in the interpretation of ancient Sudanese cemeteries during the period between 13000 B.C. and A.D. 580.*

تمهيد

لعبت المدافن دوراً مهماً في نشأة وتطور وبلورة علم الآثار، وذلك لما وفرته من مادة أثرية متنوعة، أتاحت للباحثين الوقوف على العديد من مناحي حياة الإنسان القديم. وكان علم الآثار في بداياته مرتكزاً على العمل في المدافن لدرجة كبيرة، حيث أسهم العمل في المدافن في رسم التطور الحضاري، وكشف طبيعة الكثير من الحضارات القديمة، وذلك بحكم أنها كانت قبلة صائدي الكنوز والباحثين عن التحف وهي المرحلة الأساس التي ارتكز عليها علم الآثار. كما أن المدافن حفظت الكثير من المقتنيات واللقى الأثرية، أكثر من المستوطنات، ما أسهم في كشف تلك الصورة.

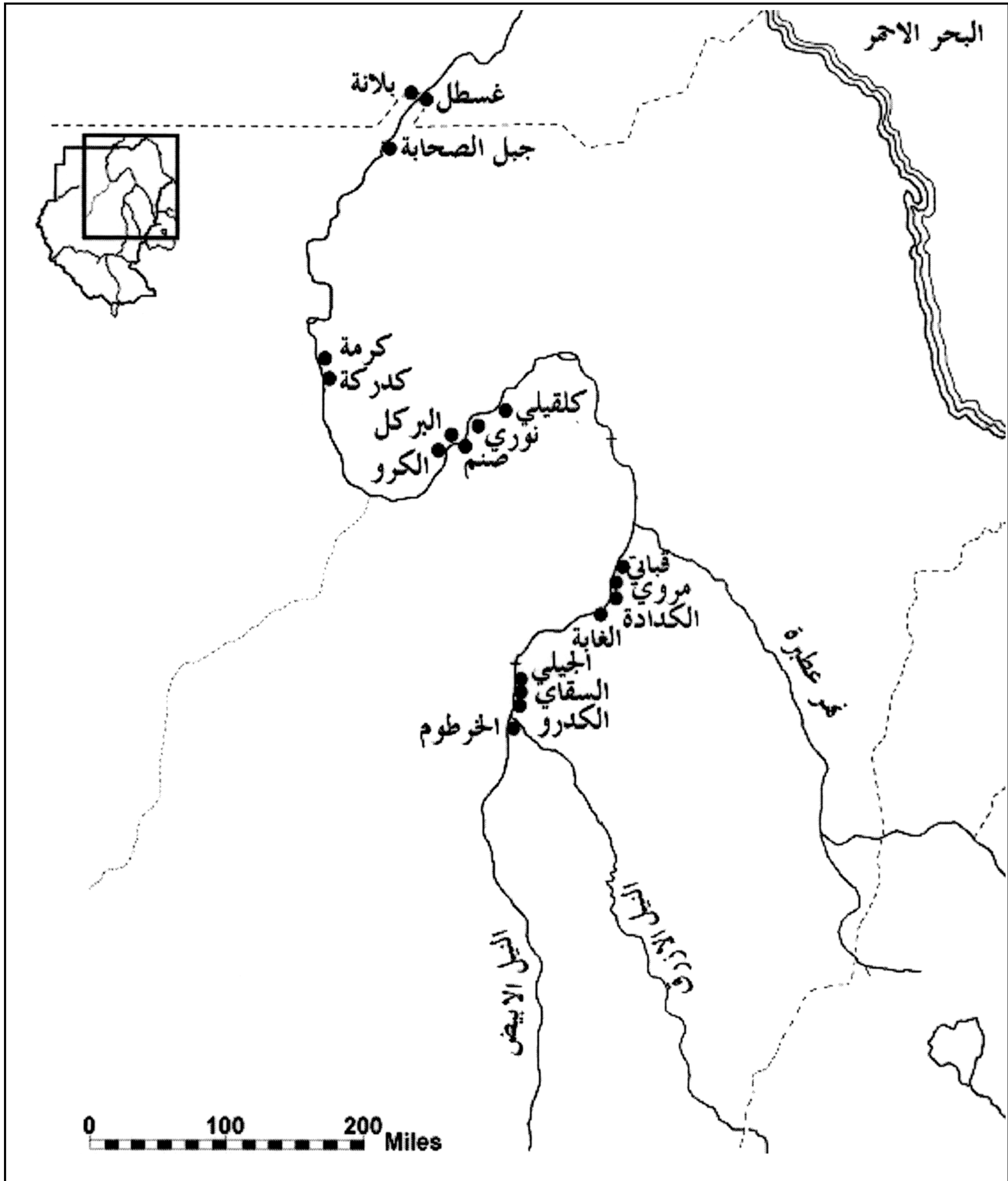
ولم يكن السودان استثناء في ذلك، فأغلب الأعمال الأثرية المبكرة في السودان ركزت بشكل كبير على تنقيب المدافن، خاصة تلك المسوحات والحفريات التي تمت في الجزء الشمالي من السودان (Reisner: 1907-11)، والتي أسهمت في وضع التقويم التقريبي لتاريخ وحضارة السودان القديم، وسلطت الضوء على الكثير من خفاياه.

وبشكل عام، أسهمت المدافن في التعرف على جوانب متعددة من تاريخ السودان الممتد منذ العصر الحجري القديم الأعلى، وحتى الفترة السابقة لدخول المسيحية في السودان؛ أي الفترة الممتدة من ١٣ ألف ق. م إلى ٥٨٠م.

شهدت هذه الفترة الطويلة أنماطاً متعددة من الدفن، شملت التلال الركامية ذات الحفر البسيطة أو الجانبية أو المتعددة أو ذات الغرف والمساطب، والأهرامات. ووضح في كثير من الأحيان أن مجموعة المدافن وأشكالها الداخلية والخارجية، قد تكون دليلاً على نهاية فترة وبداية فترة جديدة في تاريخ السودان. ولهذا السبب كانت المدافن تعامل معاملة خاصة في الأبحاث الأثرية، ويشار إليها كأحد السمات المهمة في تمييز الثقافات والحضارات. ومن هنا تعددت مناهج دراسة المدافن، التي اتبعت في التفسير، نظريات آثارية وانثروبولجية ذات ميول متعددة ومتباينة.

ويتناول هذا البحث دور النظريات والمناهج الآثارية في تفسير بعض المدافن في السودان القديم، في الفترة الممتدة من حوالي ١٣ ألف ق.م إلى حوالي٥٨٠ م، وهي الفترة التي

العدد الثالث عشر ذو الحجة ١٤٢٦ هـ - يناير (كانون الثاني) ٢٠٠٦م
(ص ص ٧ - ٢٤) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩



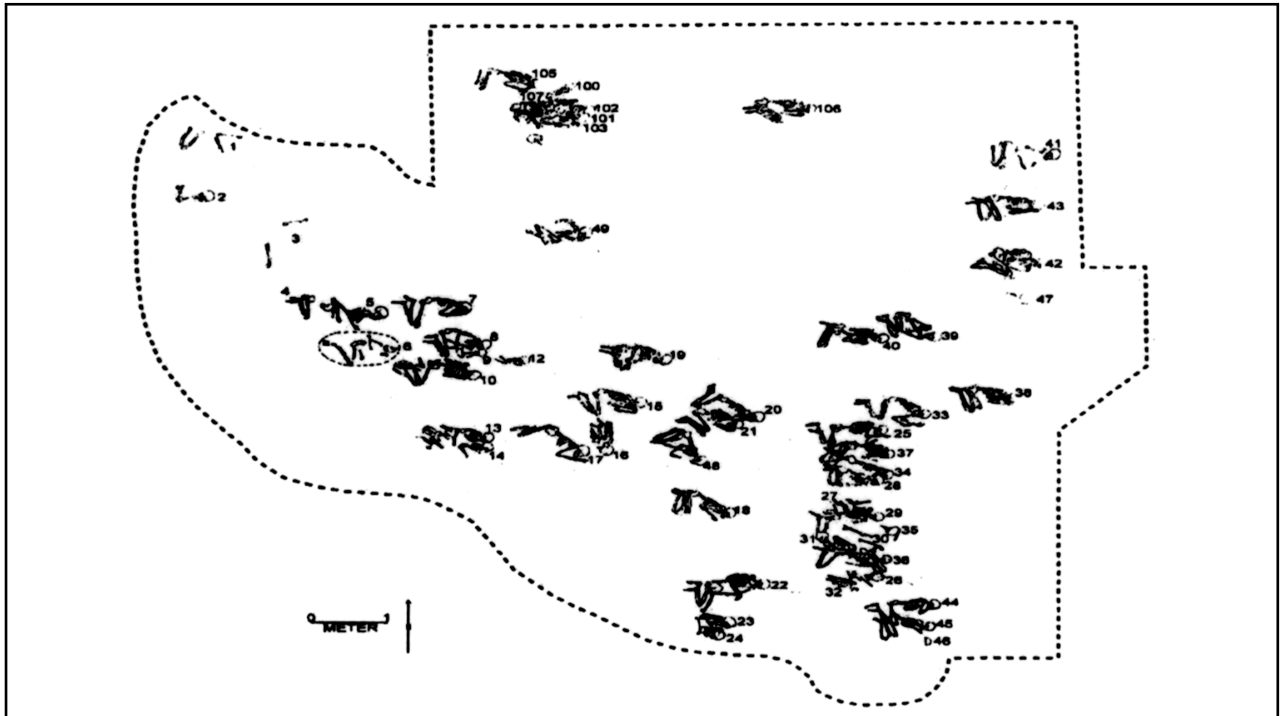
الخريطة ١: بعض مواقع الجبانات الواردة في البحث.

تغطي ثقافة عبد القادر (Qadan) في العصر الحجري القديم الأعلى (حوالي ١٣٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ ق.م)، والعصر الحجري الوسيط (حوالي ٨٠٠٠ ق.م -٥٠٠٠ ق.م)، والعصر الحجري الحديث (حوالي ٥٠٠٠-٣٠٠٠ ق.م)، وفترة المجموعات (أ، ب، ج) (حوالي ٣٨٠٠ ق.م -١٥٥٠ ق.م)، وحضارة كرمة (حوالي ٢٥٠٠ ق.م -١٥٠٠ ق.م)، وحضارتي نبتة ومروي (حوالي ٧٤٧ ق.م -٣٥٠ م)، وفترة ما يعرف بالمجموعة (س) (X-Group) (حوالي ٣٥٠ م -٥٥٠ م)، أي الحقب الأخيرة من ما قبل التاريخ وحتى بداية التاريخ الوسيط في السودان.

فترة ما قبل التاريخ

جرى الكشف عن أقدم المدافن شمالي السودان في النوبة السفلى، في مواقع جبل الصحابة (Wendorf, 1968a) والجزيرة دبروسا، بالقرب من وادي حلفا، وتوشكا (Wendorf, 1968b: 869-875)، ونسبت لثقافة عبد القادر، التي اشتقت اسمها من اسم القرية التي وجد بها الموقع (الشكل ١)، وتؤرخ إلى نحو ١٣٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ قبل الميلاد ، والتي تؤرخ إلى نهاية العصر الحجري القديم في تلك المنطقة. أشهر هذه المدافن هي تلك التي عُثر عليها بالقرب من جبل الصحابة، على بعد ٣ كلم من وادي حلفا وتعرف بالموقع ١١٧ . تحتوى هذه الجبانة على ٥٨ هيكلاً عظمياً من كلا الجنسين. وتشير الدلائل على أن ٦ أفراد على الأقل من المدفونين في تلك الجبانة، لقوا حتفهم نتيجة عنف ما، حيث عُثر على ١١٦ أداة حجرية بالقرب من ٢٤ هيكلاً عظمياً؛ كانت ٦ منها داخل عظام تلك الهياكل فُسِّر بأنه إشارة إلى نشوب صراعات ونزاعات إقليمية بين المجموعات في تلك الفترة (Wendorf, 1968a).

كانت هذه المجموعات الثلاث من المدافن من أهم اكتشافات بعثات ما قبل التاريخ العاملة في حملة إنقاذ آثار النوبة الثالثة (١٩٥٩-١٩٦٦م)، بوصفها من أقدم أدلة الدفن على الإطلاق في المنطقة سالفة الذِكْر. كما أنها شكلت أساساً جديداً لتاريخ البحث الأثري في النوبة السفلى، والذي أهمل



الشكل ١: مخطط عام لجبانة جبل الصحابة، توضّح أماكن الهياكل وأوضاعها (المصدر: (Wendorf and Schild: 2004: 9).

حتى تاريخ هذه الحملة إلى درجة كبيرة أياً من فترات العصر الحجري الثلاث، إذ أُدخلت دراسات العصر الحجري لأول مرة في برنامج العمل الميداني على الرغم من الشك الذي كان يسيطر على التفكير في صعوبة العثور على اكتشافات مهمة. ومن أهم البعثات التي اضطلعت بهذه المهمة البعثة المشتركة لآثار ما قبل التاريخ (Combined Prehistoric Expedi-tion CPE)، التي عملت في منطقة واسعة تمتد من الحدود السودانية المصرية شمالاً، وحتى الجنوب من الشلال الثاني، وكشفت عن المدافن المشار إليها (الخارطة ١).

كان المنهج المتبع من قبل هذه البعثة متوافقاً مع صعوبة المهمة التي أوكلت إليها، خاصة أن هناك العديد من العوامل التي أثرت على أعمال هذه البعثة وغيرها، أهمها اتساع المنطقة إذ لم تكن هناك بعثة أخرى تعمل في مواقع العصور الحجرية سوى البعثة الاسكندنافية المشتركة (Scandinavian Joint Expedition SJE). وهناك عوامل أخرى أثّرت على النتائج النهائية للحملة المشتركة، ذلك أن أغلب أعضائها جاءوا إلى النوبة السفلى لأول مرة من أقطار متعددة، وخلفيات مختلفة، وبتجارب قليلة مع مشاكل الآثار الأفريقية. إضافة إلى ذلك، فالمنطقة نفسها كانت غير معروفة آثارياً في مجال العصور الحجرية، وكان معتقداً أنها لم تكن لها إسهامات في تلك الفترة ؛ ولذلك، كانت الفرصة مواتية لتطبيق الوسائل والتقنيات الجديدة في البحث. وفي أغلب الحالات كانت التقنيات الميدانية تتبع المناهج الغربية، التي عادة ما تُعدل عاماً بعد عام.

ووفقاً لويندورف، فإنَّ الوحدة الأساسية في البحث هي جمع الأدوات المشتركة من المواقع ويُطلق عليها اسم: تجمُّع أو مجموعة (Assemblage). وتضم التجمعات المختلفة في وحدات (Units) وفقاً للتماثلات النوعية والتقنية بينها. وهذه الوحدات أسماها صناعات (Industries)، ويعتقد أنها تعكس درجة من التجانس الثقافي (Cultural Homogene-ity)، لمجموعة بشرية ما (Wendorf: 1968a).

وجدت مقبرة جبل الصحابة اهتماماً متعاظماً من البعثة، بسبب أنها أول مقبرة عُثر عليها في السودان من فترة العصر الحجري القديم، تحوى هذا العدد الكبير من الهياكل. لذلك فقد حفرت بالكامل؛ ولكن في وقت قصير للغاية، حسب ما سمح به الوقت الضيق للعمل الإنقاذي بالمنطقة، وبسبب ارتباط البعثة بتغطية اكبر منطقة ممكنة بالمسح والتنقيب. وعلى كلٍ درست كل الهياكل بدقة وحُددت مواضعها بالمقبرة واتجاهاتها ووضعيتها إثناء الدفن، ومن ثم حُدد الجنس والعمر لكل هيكل (Wendorf: 1968a, Wendorf and Schild: 2004).

فُسرت هذه المقبرة في نهاية الأمر كنتيجة لعداء أو نشوب صراع ما لأسباب مختلفة، اعتماداً على التصاق بعض رؤوس السهام الحجرية مع الهياكل، التي يفترض أن بعض أصحابها ماتوا نتيجة عراك. وقد أسهمت هذه النتائج في التعرف على عدّة أفكار تتعلّق بالحجم والتركيب الاجتماعي للمجموعات، التي كانت موجودة شمالي السودان في هذا الوقت، وطبيعة العلاقات بين هذه المجموعات. وربما أكثرها إثارة في هذا الاعتبار، ما يتعلق بالعنف الذي كانت نتائجه واضحة في عدد من الهياكل العظمية. ولكن النتيجة التي توصلت إليها البعثة: أن العنف كان حدثاً عادياً جداً في المنطقة في ذلك الوقت، بوصف أن هذه المقبرة مثالية لهذه الواقعة، ولأسباب تتعلق بالتحولات البيئية التي سادت وقتها (محمد علي: ٢٠٠٣: ١٠–١٤).

وعلى الرغم من عمليات الاستكشاف الشاملة في النوبة السفلى، آنذاك، لم يُعثر على أية مقابر من العصر الحجري القديم، بل لم تُكتشف في السودان أية مقابر تعود إلى تلك الفترة. ولا يمكن تفسير ذلك إلا إذا كان متعلقاً بعمليات البحث ذاتها ومناهجها في الكشف، أو تعرية مواقع الدفن. وقد ساد هذا الغياب التام لمدافن العصر الحجري القديم في كل منطقة شمالي السودان، حتى كُشف عن مقابر العصر الحجري الحديث في منطقة كدركة بالقرب من كرمة.

في الجانب الآخر، وفرت عمليات الاستكشاف والبحث الأثري في منطقة وسط السودان القليل من المقابر، التي تؤرخ إلى فترة العصر الحجري الوسيط، أو ما يعرف بفترة الخرطوم المبكرة (حوالي ٨٠٠٠ –٥٠٠٠ ق.م.)، والتي تختلف

عادات الدفن فيها اختلافاً كبيراً عن جبانة جبل الصحابة. وأهم هذه الاختلافات عدم وجود أي غطاء فوقي للقبر، وعدم وجود محتويات بجانب الجثة، إلا في حالات قليلة، كما في السقاي (Caneva,1983:21-24)، وموقع الخرطوم (Arkell,1949:31-35) (الخارطة ١).

وبسبب قلة البيانات المتعلقة بالميت (كمحتويات القبر)، وطقوس الدفن لم تجد مدافن العصر الحجري الوسيط حظها من الدراسة الدقيقة المفصّلة، أو المنهج الواضح للوصول إلى بيّنات متعلقة بالمجتمع القديم. وتم التركيز بدلاً من ذلك على دراسة المستوطنات ومحتوياتها، ودراسة التقنيات القديمة والتماثلات الإقليمية لها. كما لم يُعط اعتبار كبير لدراسة البيّنات العظمية، إلا في حالات محددة (Arkell 1949; Caneva 1983).

وقد أمكن التعرف على عادات دفن أكثر تعقيداً في مواقع العصر الحجري الحديث (٥٠٠٠-٣٠٠٠ ق.م)، كما دللت على ذلك أعمال التنقيب في مواقع الكدرو، والجيلي شمالي الخرطوم (Krzyzaniak: 1992 , Caneva: 1988)، والغابة والكدادة بالقرب من شندي (Reinold: 1987, 1991). وتتميز أغلب هذه المدافن بوجود غطاء فوقي، يكون في الغالب من كوم منخفض، أو ركام من الحجارة غير المنتظمة، بينما يدفن الميت في وضع قرفصائي في حفرة دائرية أو شبه دائرية، ويزين بالعديد من الحلي والأساور والعقود، وتوضع بجانبه الأواني الفخارية والفؤوس المصقولة ولوحات التلوين الحجرية والأدوات العظمية والحجرية وغيرها. كما عُثر في بعض المقابر على جماجم الثيران وهياكل الكلاب والأغنام، التي تظل وظيفتها غير معروفة، وربما تشير إلى أهمية تلك الحيوانات للمجتمع وللطقوس الجنائزية. إضافة إلى ذلك، عُثر على مدافن تحتوي على فردين أو ثلاثة، الشئ الذي فسر بممارسة عادة القرابين البشرية، التي انتشرت بشكل واسع في فترة لاحقة، وبشكل خاص في فترة حضارة كرمة (٢٥٠٠-١٥٠٠ ق.م).

إن ما يميز مقابر فترة العصر الحجري الحديث، أيضاً، أنها حظيت باهتمام خاص من قبل الآثاريين، بوصفها المكمل الأساسي لفهم مجتمع العصر الحجري الحديث وعاداته، خاصة وأنها مصدر أساسي لهذا النوع من الدراسة. وبسبب هذا الاهتمام تعددت المناهج المتبعة في دراسة المقابر ومحتوياتها حسب ظروف كل مقبرة. هذه المناهج يمكن تلخيصها في الأمثلة التالية:

١ . مقبرة الكدرو

ركّز ليخ كرزيزانياك في التنقيب في مقبرة الكدرو[١]، شمالي الخرطوم (الخارطة ١) بشكل أساسي، على الأثاث الجنائزي أو محتويات القبر. فقد هدف بشكل خاص إلى التعرف على التباين الاجتماعي بين سكان العصر الحجري الحديث، وظهور المجتمعات المعقّدة في المنطقة (Krzyzaniak: 1992: 267-273). وقد قسّمت مدافن الكدرو المبكرة على هذا الأساس إلى أربعة أصناف، وفقا لثراء الأثاث الجنائزي. كما تم الاهتمام بالتوزيع المكاني لهذه المقابر بالجبانة. إنّ تطبيق هذا المنهج، على أية حال، اعتمد بشكل كبير على اتساع المقبرة وعدد القبور، التي يمكن دراستها. بمعنى آخر، أنه من غير المجدي تطبيقه على عدد أقل من المقابر لا تسمح بحدود واضحة لاختلاف أشكال الدفن وطقوسه، حسب الأساس الجنائزي.

وبعد دراسات متواصلة بالمقبرة استمرت على مدى أكثر من ٣٠ عاماً، أمكن التعرف على التكوين الاجتماعي لسكان العصر الحجري الحديث بالمنطقة، كما تعكسه مقبرة الكدرو، على أنه يتكون من أربع درجات اجتماعية على رأسها المجموعة التي كانت مقابرها هي أغنى المقابر بالأثاث الجنائزي، والتى أطلق عليهم كرزيزانياك (الصفوة) (Krzyzaniak: 1992 : 270).

وقد جادل كرزيزانياك بأنّ المدفن "يعكس التركيب الاجتماعي العامّ للمجموعة الإنسانية المحليّة" (Ibid: 270). كما افترض أن أغلب مدافن الصنف الثّالث المتركزة في أجزاء معينة من المقبرة، تمثّل "قبور الأفراد الذين يعودون إلى نخبة مجموعة العصر الحجري الحديث هذه "، بينما تعود المقابر المبعثرة القليلة الأثاث، أو التي لا تحتوى على أثاث جنائزي، إلى أفراد من الطبقة الدنيا للهرم الاجتماعي لهذه المجموعة"

(Ibid: 270).

وهذا يعنى أن كرزيزانياك أسس منهجه العملي والنظري على مبدأين، هما: نوع الأثاث الجنائزي وكَمُّه، وذلك لتحليل المركز الاجتماعي لهذه المجموعة، الشيء الذي قد يدلّ، أيضاً، على أن المركز الاجتماعي يلعب جزءاً مهماً في تقرير موضع المدفن واتجاهاته. إن العوامل التي تحكم توزيع الأثاث الجنائزي ليست واضحة؛ ومع ذلك، فقد نفترض أن المركز الاجتماعي لا بد لعب دوراً رئيساً في هذا التوزيع، خاصة وأن أغلب الأدوات الكمالية (كالصولجان، والأواني الفخارية الخاصة، والزينة الشخصية المصنوعة من العاج أو الحجارة شبه الكريمة) وجدت في مقابر محددة.

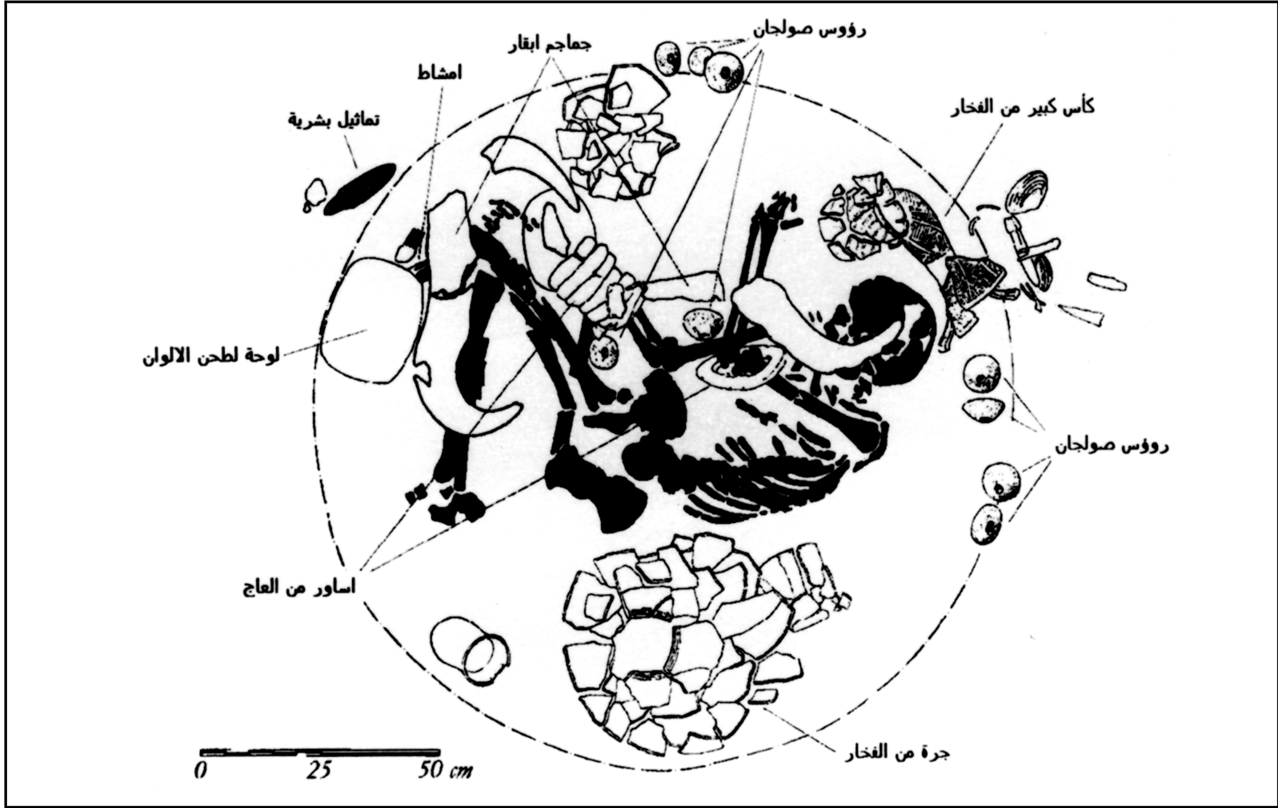
٢ . مقبرتا الغابة والكدادة

منهج مختلف بعض الشيء عن ذلك الذي استخدمه كرزيزانياك، هو منهج البعثة الفرنسية العاملة بالهيئة القومية للآثار والمتاحف السودانية، بموقعي الغابة والكدادة بالقرب من شندي (Reinold: 1987, 1991) (الخارطة ١). وبشكل عام، كان المنهج المتبع منذ البداية متجهاً نحو التركيز أكثر على المظاهر الاجتماعية في تحليل المقبرتين. وعلى ذلك دُرست المقابر بشكل أولي من خلال تعريف سماتها الثقافية. بعد ذلك حُلِّلت سلسلة من الخواص التي تعكسها المقابر، لإعادة بناء نموذج لعادات الدفن التي تعكس تعقيداً اجتماعياً محدداً. وكان التحليل مستنداً بشكل رئيس على تنظيم القبور داخل الجبانة وانتشارها. وقد تركز الاهتمام على التعرف على مجموعات محددة من المقابر من خلال دراسة علاقتها الإستراتجرافية أو الطبوغرافية. هذه المجموعات عُدت وحدات تعكس علاقات اجتماعية (عائلية؟ عرقية؟). كما عُدَّ وجود أوانٍ فخارية معينة أو ضحايا حيوانية عناصر هامة في هذه الوحدات. واعتبرت جبانة الغابة جبانة تطورت بشكل زمني وفقاً لطبوغرافيا الأرض، دفن بها أناس ينتمون لمجتمع مؤمن بالمساواة الاجتماعية (Geus: 1991: 58). الحالة نفسها لوحظت في مقبرة الكدادة على الرغم من ان وجود التماثيل الفخاريّة النسائية كانت ربما إحدى أهم الإبداعات (Ibid: 58) ، علاوة على ان بعض المقابر اعتبرت إشارة على وجود التضحية البشرية، التي قد تعد عاملاً مهماً على أن هذا المجتمع كان على عكس مجتمع الغابة، يقوم على مبدأ التفاضل الاجتماعي.

٣ . مقبرتا كدركة والجيلي

تم تبنّي توجهاً مختلفاً في تنقيب مقبرة كدركة (الشكل ٢) (Reinold: 1991) بالقرب من موقع كرمة الأثري، وفي موقع الجيلي (Caneva: 1988, 1994) شمالي الخرطوم. ففي هذين الموقعين، وعلى الرغم من أنهما نُقِّبا من قبل بعثتين مختلفتين إلا أنه كان هناك اعتماد واضح على المنهج الأنثروبلوجي. ففي جبانة كدروكة أُعطي اهتمام أكبر لتحليل وضعيات الأثاث الجنائزي بالمقابر واتجاه الجثمان (Reinold: 2000). أما في جبانة الجيلي، فقد حال العدد القليل لمدافن العصر الحجري الحديث دون إجراء أية دراسة من هذا النوع الأخير. وعوضاً عن ذلك دُرست الجبانة بالاستعانة بعلم الانثروبلوجيا الطبيعي وكيمياء العظام (Caneva: 1988)، وقد أسهم الاتجاه الأخير في التعرف على التغيرات في المرتكز الغذائي لمجموعات مختلفة في الجبانة نفسها، ومن ثم اقتراح نموذج لنشاطاتهم الاقتصادية الخاصة وأنماط استيطانهم (Caneva: 1994: 82).

وعلى الرغم من تطور نظريات ومناهج خاصة بدراسة العادات الجنائزية في السنوات الأخيرة، والتي تركز على أن المقبرة يمكن أن تسهم في معرفة العقيدة والسياقات الاجتماعية للسكان، فيتضح أن الحالة السودانية، كما تعكسها التوجهات العملية والنظرية للباحثين في جبانات العصر الحجري الحديث، تبدو مختلفة قليلا. فالمناهج المستخدمة إما أن تركّز على تفسير الأثاث الجنائزي، كما في مقبرة الكدرو، أو على المدافن نفسها كدليل للنظام الاجتماعي، كما في مقبرتي الكدادة والغابة، أو المنهجان معاً كما في مقبرتي كدروكة والجيلي. الميزّة الرئيسية للمدافن الخمسة في الكدرو، الغابة، والكدادة، وكدركة، والجيلي، هي وجود عدد من المقابر تحتوى على أثاث جنائزي غني، قد يعكس نوعاً من المركز الاجتماعي. وبذلك أدت هذه المناهج لدى كثير من الباحثين في هذا المجال إلى التسليم بالنتائج التالية:



الشكل ٢: التخطيط الداخلي لأحد مقابر جبانة كدركة (العصر الحجري الحديث) المصدر: (Reinold 2000).

١ . ان نوع الأثاث الجنائزي يشير إلى المركز الاجتماعي؛ بكلمات أخرى، إن التغيّر في ممارسات الدفن يعكس تغيّراً في المركز الاجتماعي.

٢ . إن درجة التشابه بين ممارسات الدفن في المناطق المختلفة، تعكس وجود علاقات ثقافية محلية.

٣ . إنّ عملية التفاوت الاجتماعي وظهور الطبقات حدثت في وسط السودان أثناء الفترة الطويلة للحياة المستقرة في العصر الحجري الحديث، وبسبب التركيب الاجتماعي للمجتمع الرعوي آنذاك.

٤ . إن التنظيم المكاني يشكل للمقابر داخل الجبانة بعداً مهماً لممارسات الموت (مثلاً توزيع المقابر في مقبرة الكدرو) (Azhari: 2004: 61-62).

فجر التاريخ

يعود الفضل في الكشف عن مدافن الفترات الأولى من التاريخ السوداني، والتى سنطلق عليها هنا مصطلح فجر التاريخ (حوالي ٣٨٠٠-١٥٠٠ ق.م)، إلى عالم المصريات الأمريكي جورج أندرو رايزنر، الذي استطاع خلال عمله بالنوبة السفلى والعليا في العقد الأول من القرن العشرين من صياغة تسلسل تاريخي للثقافات والحضارات السودانية، لا يزال مقبولاً الى حد كبير. وكان رايزنر، كغيره من علماء المصريات الأوائل، من الذين يعوّلون كثيراً على مبدأ الانتشار الثقافي، وهي المدرسة التي ترى أن التغير الثقافي يتم عبر ثلاث عمليات رئيسية، هي: الانتشار أو الهجرة أو الغزو. وعلى هذا المبدأ، وباعتماده على المدافن وتحليلها، فسر رايزنر الثقافات السودانية أنها نتاج انتشار للحضارة المصرية؛ وبمعنى آخر، نظر إلى التغير الثقافي على أنه نتاج لهجرة مجموعات وافدة الى المنطقة. كما انه نظر لهذه الثقافات (التي أطلق عليها اصطلاح "المجموعات النوبية الحضارية" (أ، ب، ج الخ) كمجموعات منفصلة، وليست سلسلة من التواصل الثقافي المتطور للمجموعة البشرية نفسها. علاوة على ذلك،

اقترح رايزنر، اعتماداً على ما اعتقده من وجود اختلافات عرقية في الهياكل العظيمة في المدافن، ظهور مجموعتين عرقيتين في النوبة السفلى تمثلتا في ما اسماه المجموعة (أ)، التي نسبها إلى مجتمع عاش في شمالي أفريقيا، وهو من العنصر القوقازي الأبيض، ومجموعة العنصر الزنجي، الذي يغلب على ما أسماه بالمجموعة (ب)، وبعض هياكل ما أسماه المجموعة (ج) (Reisner: 1910).

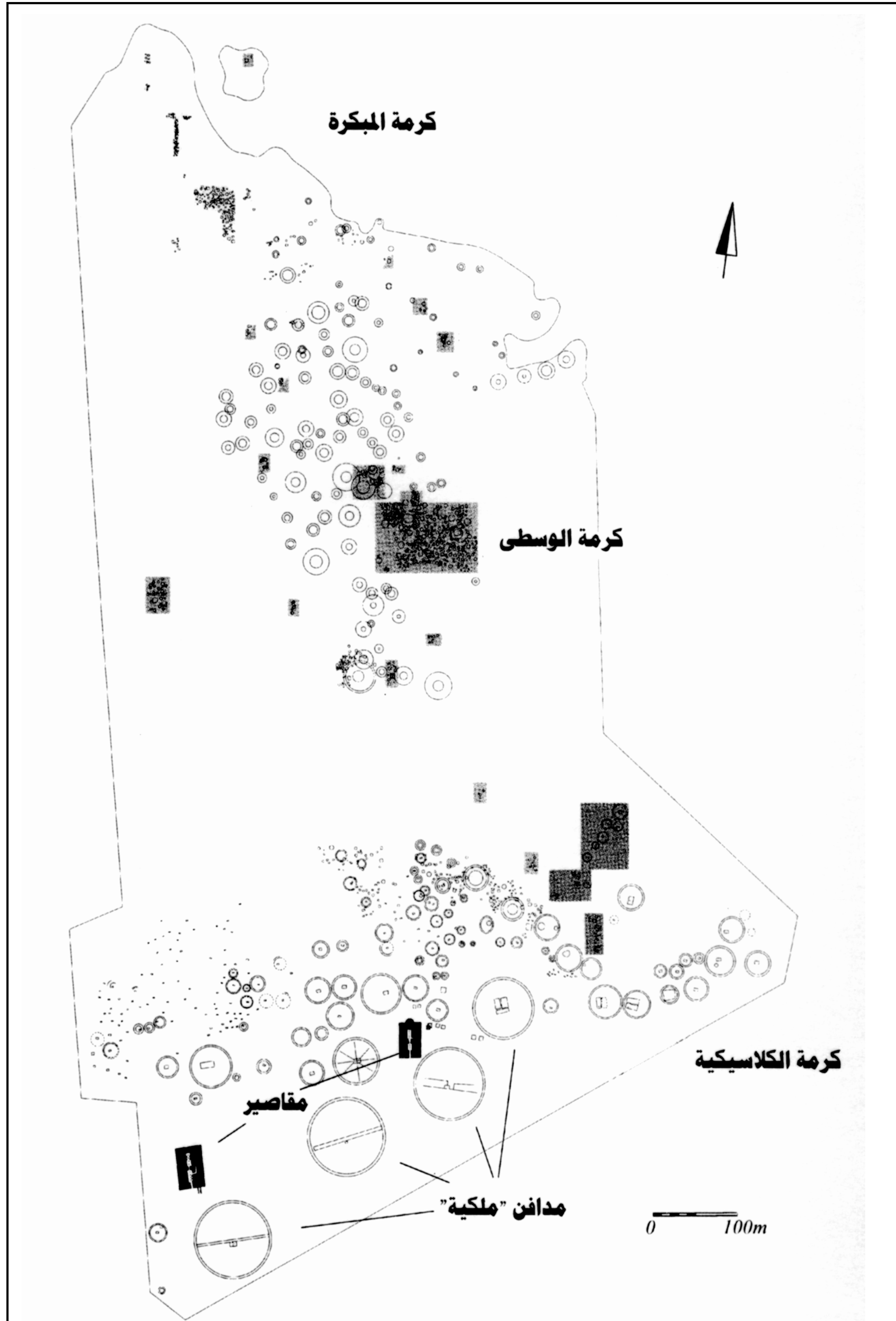
كان رايزنر من علماء المصريات المؤمنين بأن المدفن هو مفتاح للتفسير العرقي للثقافة وأداة الآثاري. وتعامل معه على هذا المبدأ، دون النظر إليه كوحدة مثله مثل أي موقع أثري قد يعكس أنماطاً من حياة القدماء وثقافتهم وعلاقاتهم. ولذلك مزج رايزنر بين المنهجين العملي والنظري للوصول إلى نتائجه، وكان سباقاً في إرساء دعائم لأساليب العمل الميداني المنظم، في التسجيل والرسم ومسح المواقع، هي دعائم أصبحت أساسا للعمل الحقلي اللاحق بالنوبة السفلى ومناطق أخرى بالسودان.

عمل بعض الباحثين لاحقاً (خاصة خلال الحملتين الإنقاذيتين الثانية والثالثة للنوبة السفلى)، من خلال الأعمال الأثرية والبحوث المتعددة، في تعديل بعض افتراضات رايزنر، خاصة فيما يتعلق بأصل هذه الثقافات (كمثال انظر: (Nordstrom: 1972). وكان ذلك نتاجاً لحدوث تغيرات جذرية فيما يخص النظريات الآثارية، وازدياد شكوك الآثاريين في النظرية العرقية (Adams: 1977). فعلى سبيل المثال أوضحت الدلائل، التي وفرتها الحملة الثانية، والحملة الثالثة أن المجتمع والثقافة خلال فترة هذه الثقافات انطبعا بسمات محلية خالصة. كما وضح أنه لا يوجد اختلاف بين المجموعة (أ) والمجموعة (ب) (Smith: 1966)، مع وجود علاقة ثقافية قوية بين المجموعة (أ) والمجموعة (ج). وفي هذا السياق تجنب أحد باحثي الحضارات السودانية القديمة، وهو الأمريكي وليم آدمز (Adams, W)، في كتابه (Nubia Corridor to Africa)، التضمينات العرقية لكلمة مجموعة (Group)، واستخدم بدلاً منها مصطلحاً ثقافياً أكثر اتساعاً وهو الأفق (Horizon)، واضعاً المجموعتين (أ) و (ب) في مصطلح واحد هو الأفق (أ) (A-Horizon) (Adams: 1977)، كما استخدم تريقر بدلاً من ذلك مصطلح (المرحلة النوبية- Nubian Phase)، لتقسيم هذه الثقافات إلى مراحل لكل منها سماتها الخاصة (Trigger: 1965: 17-18).

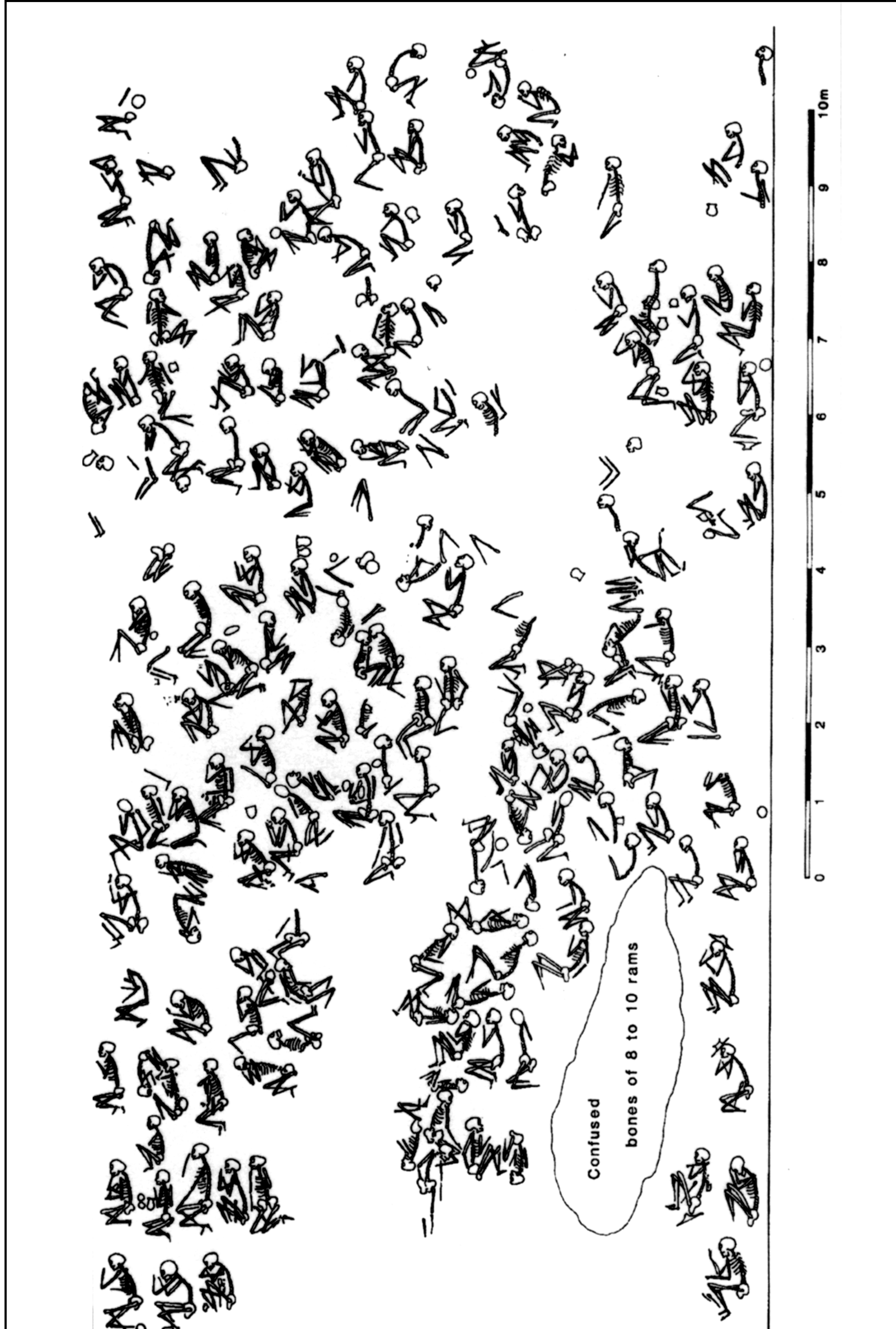
في حقيقة الأمر أن كلمة (مجموعة) تحمل في معناها دلالة عرقية واضحة. وقد ظهر ذلك بوضوح في تقسيم رايزنر للثقافات وأصولها، حسب مردودها الثقافي وتطورها أو انحطاطها. وهذا ناشئ بشكل كبير من النتائج التي توصل إليها عالم التشريح إليوت سميث، فيما يتعلق بالأصول العرقية للهياكل العظمية، والتى تمت في المواقع نفسها وليس في مختبرات متخصصة . أضف لذلك، أن الأعمال اللاحقة عملت على ملء الفراغ في التسلسل التاريخي الذي وضعه رايزنر، حيث ثبت أن التماثلات الثقافية بين السكان تفوق بمراحل الاختلافات بينها، فأصبح من الممكن النظر إليها على أنها نتيجة لعملية تطور متواصلة، وأن الباعث على استمرارية الثقافة المحلية هو باعث داخلي، وأن التغير في الأنماط الثقافية ليس عائداً إلى هجرة سكانية.

لم يختلف تفسير رايزنر للمدافن في النوبة السفلى عن تفسيره لحضارة كرمة في النوبة العليا (٢٥٠٠-١٥٠٠ ق.م)، التي عمل في موقعها الرئيس عندما عاد للعمل في السودان في الأعوام ١٩١٣-١٩١٦، مديراً لبعثة هارفارد بوسطن (Reisner: 1923). وقد تميز منهجه البحثي بذات المنهج الأول، أي الاعتماد على الحفريات واسعة النطاق، والتركيز على المدافن لتفسير الثقافة. كما لم تختلف نظرته الأصلية للثقافات المحلية. وفسر موقع كرمة بأنه يمثل مستعمرة تجارية مصرية تحت إشراف المملكة الوسطى، وأن الغرض من إنشائها هو حصول حكام المملكة الوسطى على منتجات المناطق الواقعة الى الجنوب من كرمة.

أما المدافن فقد قسمها رايزنر الى أربعة أنواع، هي: المقابر الكبرى وعددها ثمانية فقط، والمقابر الصغرى، والمقابر الوسطى، والمقابر المستقلة، وذلك استناداً إلى شكل البناء الخارجي للمدفن ومحتوياته (الشكلان: ٣، ٤). كما هدف، أيضاً لمعرفة التطورات، التي جرت في المقبرة القديمة. وقدّر أن الاحتلال المصري كان له تأثير على السكان



الشكل ٣: تخطيط أفقي لجبانة كرمة الشرقية. (المصدر: معدلة عن: Bonnet: 1990: 70)



الشكل ٤: تخطيط عام للمقبرة (X) بجبانة كرمة الشرقية توضح مجموعة من الضحايا البشرية. المصدر: (Reisner 1923: Part III. Plan XXIV).

بالمنطقة. وفي بداية عمله بالقطاع الجنوبي من المقبرة، والذي تم فيه الحفر بطريقة منتظمة، أطلق عليه اسم "المقبرة المصرية"، بينما أطلق على المدافن التي تقع إلى الشمال اسم "المقابر النوبية"، ولعله يعني بها المقابر الشعبية بوصفها تتصف بالفقر الشديد.

مرت فترة طويلة بعد رايزنر لم تتم فيها محاولة لإجراء حفريات في كرمة حتى بداية السبعينات، عندما اضطلعت البعثة السويسرية (بعثة جامعة جنيف) بقيادة الآثاري السويسري شارلس بونيه (Bonnet)، بمهمة إعادة دراسة هذا الموقع (بونيه وحاكم: ١٩٩٧). كان هدف بعثة جنيف منذ البداية هو التعرف على العناصر التي أدت إلى نشوء مملكة كرمة في حوالي ٢٥٠٠ ق.م، وتأثير النموذج المصري على الوسط السوداني المحلى (بونيه وحاكم ١٩٩٧: ص ٩٥).

ومن أهم المناهج التي استخدمت في دراسة المدافن في كرمة تطبيقات علم الأجناس القديمة، من خلال الدراسة الديموغرافية والتي تحوي عدة متغيرات، منها الجنس والعمر ونسبة الوفاة أو معدل الحياة. كما اهتمت البعثة أيضاً بالاستفادة من علم الأمراض القديمة بالاعتماد على رصد الأنسجة الصلبة، كالعظام والأسنان، والأنسجة اللينة، وباستخدام تقنيات حديثة، كالتحليل المجهري والإشعاعي للتشخيص. كما أُعطي اهتمام خاص لدراسة حالة العظام (Taphonomy) لإكمال دراسة أمراض العظام والتى تعطينا معلومات مهمة عن البيئة والحالة العامة للعظام، خاصة أنها أساسية في دراسة الطقوس الجنائزية، والتى يلعب فيها علم الأجناس الطبيعي دوراً مهماً. وقد أخذت العديد من العينات لعمل التحاليل المعملية المتطورة المتعددة، كالكيمياء الإحيائية وفيزياء الإحيائية، والأمينية والعناصر الأولية الأخرى، ثم بقايا الدهنيات وهرمونات الارسترويد. كما جرت تحليلات عديدة لمحتويات الأمعاء والمعدة لمعرفة نوع الطعام، ودراسة مادة الميلانين، وهي المادة الملونة للجلد والشعر والعظام وتتبع المكونات الجينية (بونيه وحاكم ١٩٩٧: ص ٩٥-٩٦).

شملت الدراسات، أيضاً، التحليل المورفولوجي للهياكل العظمية، وهو دراسة الشكل الخارجي وتركيب الأجزاء فيه. كما أمكن دراسة التطور في المقبرة وعاداتها الجنائزية، من خلال تحليل التوزيع المتلاحق في الوسط الجنائزي (نفسه: ص ١٦٥).

إن الناظر إلى الدلائل التي وفرتها بعثة جنيف عن حضارة كرمة، يلاحظ أن ذلك ربما يكون ناشئاً بشكل رئيس من المنهج، الذي اتبعه شارلس بونيه منذ البداية، والذي كان نتاجاً للتطور العلمي والنظري، الذي شهده علم الآثار منذ بداية الستينات. فبونيه لم يتعجل النتائج، بل عمل على استخدام تقنيات علم الآثار واتباع أساليبه الحديثة في الحفريات، وأعطى وزناً متساوياً لمواقع الدفن ومواقع الاستيطان؛ وبذلك تمكن من تحديد عدد كبير من المواقع الأثرية المحيطة بموقع كرمة. أضف الى ذلك أن الآثاريين ومنهم بونيه، أخذوا يتخلصون شيئاً فشيئاً من سطوة علم المصريات، الذي ثبت، بعد سنين عديدة، أنه ليس المنهج الملائم لدراسة الآثار السودانية إلا فيما يتعلق بالنصوص أو بالآثار المصرية الباقية في بعض أنحاء شمالي السودان. كما أن النظر الى مثل هذه الحضارات المحلية من وجهة نظر هذا العلم، أعاق كثيراً الوصول الى الحقيقة.

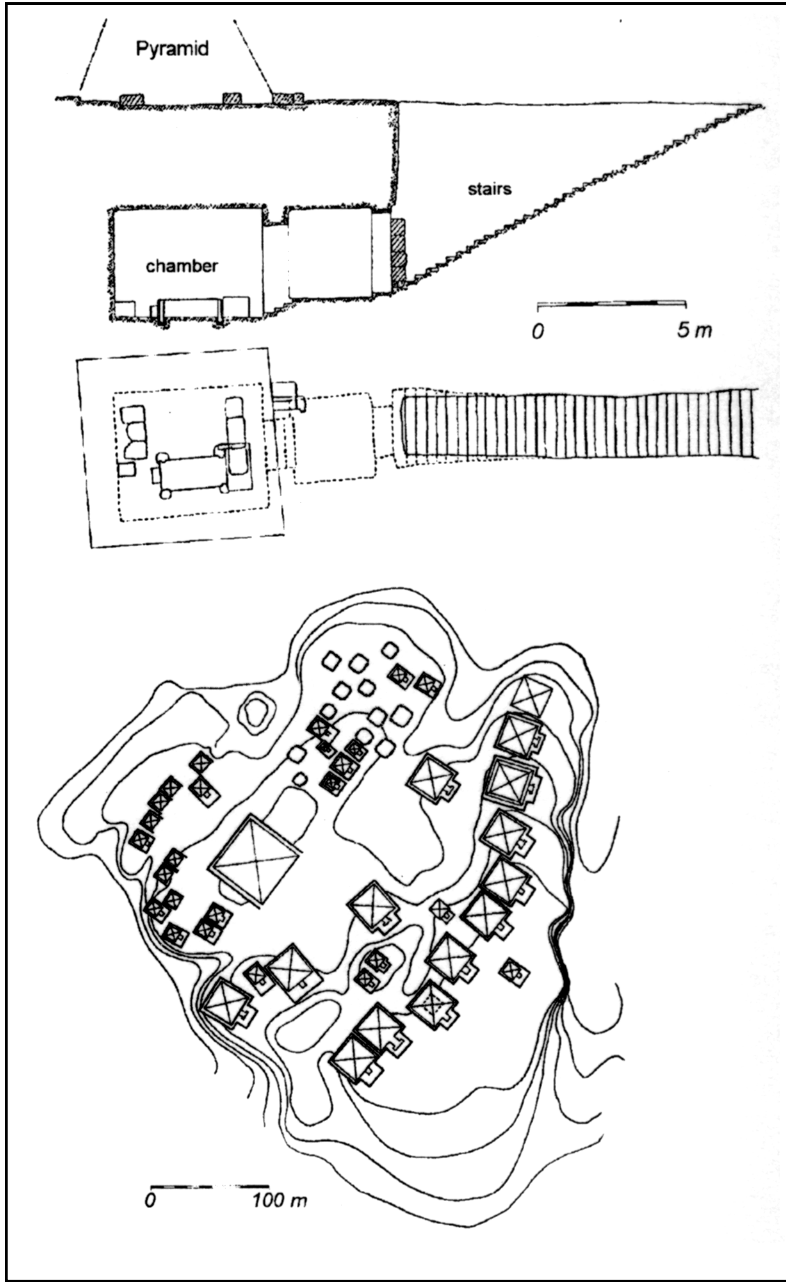
الفترة التاريخية

تعد أعمال رايزنر فصلاً قائماً بذاته في تاريخ البحث الأثري للفترة التاريخية في السودان، وتعد أعمالا رائدة في مجال دراسة الحضارة الكوشية (نبتة مروي) (القرن التاسع ق.م – القرن الرابع الميلادي).

بعد تنقيبه في مواقع المدافن الملكية في الكرو ونوري والبركل، والبجراوية، اعتقد رايزنر بأنّه بنى تأريخ المملكة الكوشية اعتماداً على الدلائل الآثارية. وبشكل عام أعتقد أنّه نجح في الكشف عن الاستمرارية التاريخية للمملكة من فترة الأسلاف إلى سقوطها (Reisner: 1919).

كان منهج رايزنر في دراسة أغلب المدافن الكوشية في الكرو ونوري (الشكل ٥) وجبل البركل ومروي، مستنداً في الأساس على مبدأ التوزيع والتتابع الطبوغرافي للمدافن. وكان رايزنر مهتماً بشكل رئيس بالموقع وبنظام وتاريخ القبور الملكية. ولذلك أهمل بعض السّمات المهمة، مثل الأنظمة

الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والإدارية. وقد أعتقد رايزنر، أيضاً، أنّه قادر على أن يحدد تأريخاً تقريبياً للعائلة المالكة في كوش. وبنى عمله على بعض المعايير الرئيسية، فقد حاول- مثلاً - حساب نظام ترتيب الأهرامات وربطها بأسماء من يعتقد أنهم ملوك كوشيين. كما أعطى لكل ملك تاريخاً تقريبياً. وفي نهاية الأمر استنتج رايزنر ان أقدم الأهرامات احتلت أفضل الأماكن، ومن ثم فإن أسوأ مكان في الجبانة يخص الملك الأخير في السلسلة. ثمّ بفحص بناء كلّ هرم وطبقا للتغييرات في أسلوب البناء قسم رايزنر الأهرامات إلى مجموعات، افترض أن داخلها، كان الملوك يحكمون في تعاقب. ومن خلال دراسة محتويات القبور ومقارنتها، استنتج أن الهرم ومحتوياته يمثل عمل جيل واحد من الحرفيين، ولذا، فإن قبر الملك القادم كان يُبنى جزئيا بواسطة الحرفيين أنفسهم. لكن في الوقت نفسه كان بعض هؤلاء الحرفيين الكبار السن يستبدلون بآخرين. وقد بقيت بعض المواد الجنائزية من دون تغيير في قبور متعاقبة، بينما اختلفت في بعضها. ولذلك احتوى كل هرم متعاقب على بعض المواد من النوع نفسه الموجود في القبر السابق. وباعتماده على المحتويات، بنى رايزنر نظريته التي تقول إن الملوك الأقوياء والأكثر ثراء كان لهم أفضل الأهرامات. وفي الجانب الأخر، وبعد أن رتّب رايزنر الأهرامات في سلسلة متعاقبة ونسب كل هرم لملك من الملوك، عمل على إعطائهم تواريخ تقريبية لحكمهم. وبُني هذا التأريخ التقريبي بحساب القاعدة المتوسطة، بأن كل جيل لملوك كوش قد حكم ١٧ سنة. وقد حاول أن يكون أكثر دقة بإعطاء أكثر من ١٧ سنة في الحكم إلى الملوك الذين



الشكل ٥: التخطيط العام لجبانة نوري ، ويظهر في الأعلى التصميم العام لهرم إحدى الملكات. المصدر: (Dunham: 1950: fig 11a).

كانوا أكثر تجهيزاً لأهراماتهم، وأقل من ١٧ سنة إلى أولئك الذين دفنوا في أهرامات فقيرة، أو غير مكتملة البناء (Ibid: P: 59f).

من الواضح أن منهج رايزنر في ترتيب الملوك وتاريخهم قد بنى كليّا على قاعدة افتراضية. ولذلك واجهت هذا المخطط العديد من الصعوبات حتى في فرضياته الخاصة.

فعلى سبيل المثال، واجه رايزنر شئً من الصعوبة في وضع مجموعتي أهرامات البركل. وقد استخدم لتأريخ المقابر معطيات نقوش جبل البركل، الى جانب نصوص أخرى أكتُشفت في مصر ولجأ الى الأساليب الآتية:

١ . قارن أشكال الأهرام وأساليب تشييدها.

٢ . أخضع التماثيل الجنائزية (الشوابتى)، والأواني المرمرية، والمسلات، وغيرها من الأشياء التي وجدت في الأهرام أو بالقرب منها، إلى منهج تصنيفي.

٣ . حلل تصنيفياً موضوعات القرابين، بما في ذلك الفخار وكل الألواح الممكنة، سواء التي عليها نقوش أو التي بلا نقوش، والأسلحة وغيرها.

٤ . قارن المواضع الخاصة بالأهرام (Reisner: 1917).

وفي نهاية الأمر قدّم ريزانر تصوراً عن وجود مملكتين مستقلتين في نبتة، وهي الفكرة التي واجهت النقد من قبل العديد من العلماء.

يضاف إلى ذلك، أن بعض الباحثين لم يقبلوا مخطط رايزنر في مجمله، ومنهم آدمز الذي شكّ في فكرة استمرار عائلة نبتة المالكة. يقول آدمز إنه لا يوجد إلا خمسة أهرامات، على الأكثر، من أهرامات نوري والبركل ومروي يمكن تأريخها اعتماداً على دليل مباشر. وأن النصف تقريباً لايمكن نسبتها لملك معين، وأن فكرة تمثيلها لتعاقب ملكي مستمر تبدو ضعيفة جداً. ويؤخذ على آدمز أنّه رفض قبول كلّ المادّة المكتوبة، التي كانت مستخدمة من قبل رايزنر (Adams: 1965).

ويتضح كذلك أن رايزنر نظر للمدافن كمحددات كرونولوجية بحته. وعلى الرغم من الجهد الذي بذله رايزنر في تنقيب هذه المدافن، إلا انه ظل رهيناً في تفسيره للجبانات من منهجه النظري الذي أسس من خلاله ترتيب الثقافات، التي درسها خلال الحملة الأولى. فقد ترك وراءه كل الأدلة الدامغة على اختلاف هذه الحضارة عن مثيلاتها في الشمال، سواء كان في بعض أنماط الدفن أو المواد الأثرية أو أسماء مؤسسيها، ليعتمد على أدلة غير مقنعة ويعزو أصولها إلى الليبيين (Reisner: 1919: 238-248). إن اعتقاد رايزنر أن المدفونين في الكرو حكام أجانب لم يعد مقبولاً، والأكثر قبولاً الآن أن المدفونين هم أعضاء أسرة محلية. ويذهب تيموثي كندال، الذي قام بدارسة مفصلة للمعثورات في الجبانة ذاتها، أن رأي رايزنر حول الأصل الليبي للأسرة الكوشية الحاكمة في الكرو أمر يعوزه المنطق (Kendall,1999: 6).

استخدم جريفث منهجاً آخراً مختلفاً لدراسة الجبانات الكوشية، وذلك في حفرياته في جبانة صنم أبو دوم (١٩٢٢-١٩٢٣) التي تقع بالضفة الغربية للنيل، مقابل جبل البركل (الخارطة ١). حاول جريفث جاهداً تقسيم المدافن الى أنواع حسب البناء الداخلي لها. كما عزّز جريفث النتائج التي توصل إليها بدارسة الأثاث الجنائزي الذي اثبت، على الرغم من سيادة العناصر المصرية فيه، بقاء العناصر غير المصرية لفترة طويلة حتى نهاية الفترة النبتية (Griffith: 1923). وتعد جبانة صنم دليلاً واضحاً على صعوبة الوصول إلى نتائج فيما يتعلق بالتسلسل الكرونولوجي للجبانات بالاعتماد على شكل المدافن وحدها، بل يجب دراسة كل ما يتعلق بها كوحدات آثارية قائمة بذاتها، خاصة وأن جريفث كان يتعامل مع مقابر غير محددة الملامح فيما يتعلق بالبناء الفوقي، الذي اعتمد عليه رايزنر بشكل رئيس في إثبات التطور الكرونولوجي للدفن في الكرو، وغيرها من المدافن الكوشية الشاخصة التي درسها، والتي يمكن أخذها كدليل كذلك على أن للشكل الخارجي للمدفن (في المملكة الكوشية على الأقل) ونوع الأثاث الجنائزي لهما علاقة كبيرة بالشخص المدفون نفسه. ولذلك يُمكن افتراض أن أكثر ما يُلاحظ في المدافن المروية هو ما يمكن أن نطلق عليه مبدأ التفاضل الاجتماعي في الدفن، وظهور امتيازات أساسية تتعلّق بالتفاضل طبقا للعمر والجنس والنسب داخل المجتمع، واختلافات تتعلّق بمرتبة المدفون نفسه، خصوصا فيما يتعلق بالقوّة والمنزلة. والناظر إلى تاريخ حفريات المدافن المؤرخة الى الفترة المروية، يُلاحظ الاختلاف الواضح في أنماط الدفن والاعتماد كلية في كثير من الأحيان على الأثاث الجنائزي لإثبات نسب المدفن. فقد دلت حفريات المقبرة المروية في قباتي، على بعد ٤٠ كلم من

مروي (الخارطة ١) (Edwards et al: 1995)، حيث يسود نظام الدفن الكوشي ذو الاتجاه شمال جنوب، أنه ثمة حاجة لإعادة تقييم لأشكال الدفن المروي، وتوضيح الاختلاف فيما بينه وبين أشكال أخرى متبعة خاصة في الشمال. هذا التنوع في طرق الدفن ظاهر في استعمال أنواع مختلفة من أشكال المقابر، وبالاستعمال المحدود للمسطبة والهرم للصفوة من المرويين، والاستعمال الشائع للمدافن الركامية، أو ترك القبور بغير شاهد، خصوصا في المناطق الرئيسية من المملكة (Edwards: 1989: 41-139; Geus: 1990).

ويتضح ذلك بشكل بيّن في الدراسات التي تناولت مدافن الفترة، التي أعقبت الحضارة الكوشية والمعروفة اصطلاحاً عند الباحثين باسم فترة ما بعد مروى أو "فترة المجموعة (س) (X-Group)، حسب تصنيف رايزنر الأول. تعرف رايزنر على هذه الحضارة من خلال مجموعة من المدافن تم الكشف عنها أثناء حملة إنقاذ النوبة الأولى . وقد عدها رايزنر مجموعة عرقية جديدة، وصنفها إليوت سميث ضمن المجموعات الزنجية. وبعد الكشف عن مدافنها الملكية الرئيسية في غسطل وبلانة (الشكل ٦)، خلال حملة إنقاذ آثار النوبة الثانية، نبعت الحاجة لإعادة تقييم آثار هذه الحضارة، خاصة أنها تحتوى على العديد من العناصر التي كانت سائدة فيما قبل في الحضارة الكوشية.

وكغيرها من الآثار السودانية، كانت آثار هذه الحضارة حقلاً لآراء ومناقشات لم تنته حتى اليوم، وأغلبها ركّز على تفسير أصلها وهويتها العرقية دون الأخذ في الاعتبار بهويتها الثقافية. وربما يكون هذا ناتجاً من أن اغلب الباحثين الأوائل، وبعض المحدثين، لم ينظروا لهذه الحضارة من واقع الدليل المادي المتاح أمامهم وهو المدافن، بل أسسوا نظرياتهم بالاعتماد على مصادر كلاسيكية متناقضة في كثير من الأحيان (Emery: 1938, Adams: 1977, Shinnie: 1954, Trigger: 1965). نظر بعض الباحثين الآخرين إلى مدافن هذه الفترة بوصفها دليل أكيد على التواصل الثقافي بين مروى وما بعدها، ولذلك جاءت مناهجهم العملية والنظرية من واقع المنهج المتبع في دراسة المدافن المروية، والذي اشرنا إليه سابقاً (شكل المدفن الداخلي والخارجي والأثاث الجنائزي) (Lenoble and Sharif 1992).

ونحسب أن المنهج الذي اتبعه الباحث جمال جعفر عباس في دراسة الطقوس الجنائزية في جبانة الحراز (الشلال الرابع) (الخارطة ١)، اثبت جدواه في مثل هذه الدراسات. وقد اختار الباحث متغيرات رأى أنها تسلط الضوء أكثر من غيرها على حقيقة الجبانة، وتمدنا بمعلومات أوفر، منها:

أ. السياقين المكاني والزماني للجبانة موضوع الدراسة بحكم وضع الجبانة في إطارها الحضاري، متى أمكن ذلك، يسهل كثيراً في فهم معطياتها.

ب. الوحدة الحضارية للجبانة بوصفها تمثّل كماً مترابطاً من وحدات (مدافن) تربطها عوامل طبوغرافية (مكانية) وزمانية، وليست وحدات منفردة.

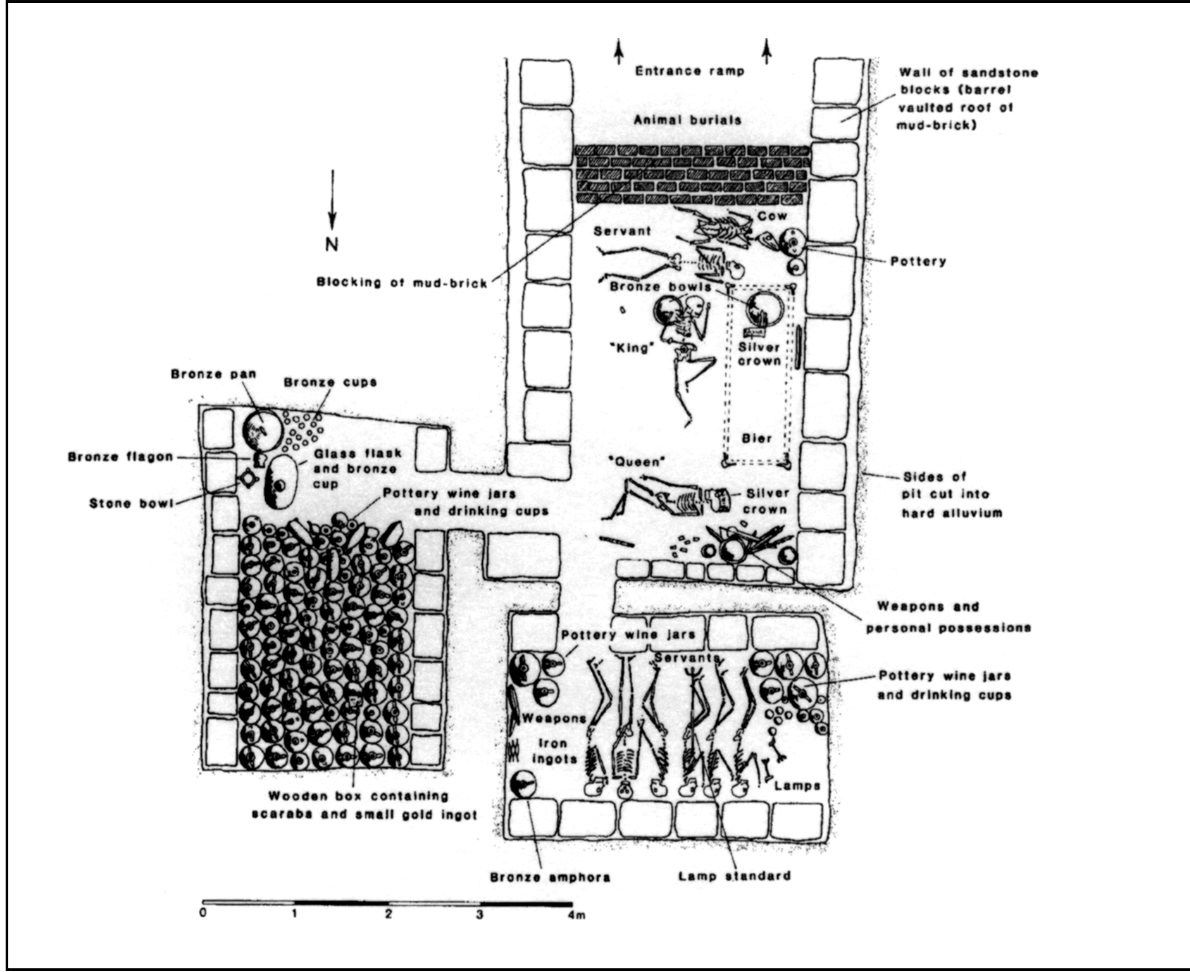
ج. دراسة المدفن على أساس أنه مكوّن مترابط من حيث العمارة والمعثورات والهيكل.

وفي المتغير (ج) وافق الباحث ما ذهب إليه رايزنر في السابق، غير أنه ربط بين هذا المتغير والمتغيرات الأخرى (أ) و(ب)، ليخرج بفهم أفضل، ذلك أن كلاً من هذه المتغيرات يؤثر أحدها في الآخر؛ فإذا كانت الحفرة ضيقة مثلاً أو دائرية أو خلافها، فلا بد أن ذلك سيؤثر في وضع الهيكل ووضع الأثاث الجنائزي كذلك.

أما في الجانب النظري، فقد استند على مواضع المقابر في الجبانة، وعلى إجراء إحصاء شامل لها للوصول إلى فرضيات تتناول التحركات السكانية في فترة ما بعد مروي (عباس، جمال جعفر: ٢٠٠٠).

ويعد مثل هذا المنهج من المناهج الشاملة، التي تتعامل مع القبر كأداة للتفسير العام وليس لتفسير مناحٍ معين من الثقافة، والذي يهدف في نهاية الأمر إلى تأريخ الثقافة المعنية وتفسير ظاهرة الحضارة السودانية.

الخلاصة



الشكل ٦: تخطيط داخلى لأحد مدافن موقع غسطل (المجموعة س X-Group) . المصدر : (Emery: 1938. Vol. 1. fig: 68).

الناظر إلى ما ساقه هذا البحث من أمثلة لمناهج ونظريات دراسة المدافن في فترتي ما قبل التاريخ والفترة التاريخية القديمة في السودان، يلاحظ أنها يمكن أن تقسم الى قسمين رئيسين هما:

القسم الأول: مدرسة الانتشار الثقافي (Diffusionism)، التي سادت في الربع الأول من القرن العشرين وأغلب باحثيها (خاصة الرواد منهم مثل إليوت سميث ومن سار على هديهم مثل جورج اندرو رايزنر) من علماء المصريات الذين درسوا المدافن باعتمادهم ثلاثة محاور رئيسية، هي: الهجرة والانتشار والغزو.

القسم الثاني: مدرسة التيار الحديث في علم الآثار (New Archaeology)، التي سادت في بداية الستينات من القرن العشرين، والتي ترى أن المهمة الأساسية لعالم الآثار هي تفسير المعطيات بدلاً من الاهتمام بوصفها، وذلك لإعادة تركيب الحياة الماضية وتاريخ الثقافة ودراسة السلوك الإنساني. وكان هذا أحد التيارات التي أدت إلى تطوير علم الآثار الحديث، الذي نادى به لويس بنفورد وآخرون (Binford: 1962, 1972)، وقد سار على ثلاثة مسارات على الأقل في تفسير الثقافة:

المسار الأول: وهو مسار المفهوم الأنثروبلوجي الذي يبدو واضح الملامح في أعمال وليام ادامز وبروس تريقر. وهو وإن كان مختلفاً مع مدرسة التيار الحديث إلا أنه انتهج منهجها وعمل على تدعيم فرضياتهم، بنتائج أعمالهم في السودان.

المسار الثاني: وهو المسار الذي اتخذت فيه المدافن خاصة

كأدلة على السلوك الإنساني والثقافة البشرية ككل. بمعنى أن المدفن هو وحدة آثارية ودليل سلوك إنساني، ولا ينبغي دراسته بمعزل عن الوحدات الأخرى المحيطة به، وأن يُعامل بوصفه الدار الثانية للإنسان القديم، التي قد تحتوى على دلائل قد لا يمكن الحصول عليها، عادة، بين ما تركه في مخلفات حياته الأولى (جميع ما تركه الإنسان بخلاف المدافن). مثل هذا المسار شديد الوضوح في دراسات فترة ما قبل التاريخ بوصف أن المدافن كانت هي الوسيلة الأساسية للحديث عن أي موضوع، متعلق بالمجتمع وتقسيماته الداخلية وفهمه للحياة الأخرى.

المسار الثالث: وهو المسار الذي يستخدم علم الآثار عموماً للبحث عن الهوية الثقافية والتواصل وأصل الحضارة المعنية والتعددية وتفسير ظاهرة الحضارة. واتخذ أصحاب هذا المسار المدافن كدليل على أصالة الثقافة، ووسيلة لتفسير السلوك الإنساني، وحقلاً للبحث في مكونات السلوك ومحركاته. وهم في ذلك مثل أصحاب المسار الثاني إلا أنهم يرون أن الثقافة المحلية انتهجت في تطورها مساراً تسلسلياً متواصلاً، أي أنها تنتقل عبر التاريخ وفق سلسلة متتابعة الحلقات تمتد حتى الوقت الحالي.

في هذه الورقة حاولنا إجراء مراجعة، من واقع المعطيات الآثارية المتعلقة بالمدافن، النظريات والمناهج الآثارية المستخدمة في تفسير بعض المدافن في السودان القديم، خلال الفترة الممتدة لمائة عام من الحفريات والبحوث. ومن الواضح أن اغلب المناهج المستخدمة ترى المدافن مواقع تؤلف وحدات قائمة بذاتها تحوي، في معظم الحالات، معطيات غنية ومتماسكة مميزة لعصرها، والتي استخدمت بفعل ذلك من قِبَل العديد من العلماء، كأساس لتفسير مجمل الحضارة السودانية المعنية في هذه الورقة.

ومن الواضح أن بعضاً من هذه المناهج والنظريات استندت في الأساس على أخرى سادت في بدايات القرن العشرين، غير أن أغلبها اتّبع أسساً نظرية معتدلة طورها علم الآثار في حقبة العقود اللاحقة من ذات القرن، أدت في نهاية الأمر إلى الثقة في تفسيرات الآثاريين، الذين استخدموا الدليل الذي تحمله المدافن في إنشاء إطار كرونولوجي، وثقافي، واجتماعي، واقتصادي للثقافة.

د. أزهري مصطفى صادق - قسم الآثار - كلية الآداب - جامعة الخرطوم - ص ب ٣٢١ الخرطوم - السودان.
Azharim2002@yahoo.com

أ. جمال جعفر عباس - قسم الآثار - كلية الآداب والدراسات الإنسانية- جامعة دنقلا - ص ب ٥٨ كريمة - السودان.
jamalkarfies@yahoo.co

المراجع

أولاً: المراجع العربية:

بونيه ، شارلس واحمد محمد على حاكم ١٩٩٧، **كرمة مملكة النوبة تراث إفريقي من عهد الفراعنة**، دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع.

عباس ، جمال جعفر: ٢٠٠٠، الممارسات والطقوس الجنائزية في عهد ما بعد مروي (جبانة الحراز-الشلال الرابع) ٣٥٠-٥٨٠م. (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة الخرطوم.

محمد على ، عباس، ٢٠٠٣، "النيل والصحراء خلال العصور الحجرية: تباين بيئي وتكامل حضاري". **أدوماتو**، العدد السابع ٧-٣٠ .

ثانياً: المراجع الأجنبة

Adams,W.Y. 1965. "Post-Pharaonic Nubia in the Light of Archaeology", **Journal of Egyptian Archaeology** 51. PP: 160-78.

.... 1977. **Nubia Corridor to Africa,** London and Princeton, Allen Lane and Princeton University Press.

Arkell, A. J. 1949. **Early Khartoum**, Oxford University Press. Oxford.

Binford, L. 1962. "Archaeology as Anthropology", American Antiquity. 28. 217-225.

Bonnet, Ch. 1990. **Kerma, royaume de Nubie.** Geneva.

Caneva, I. 1983. **Pottery Using Gatherers and Hunters at Saggai (Sudan)**, Roma.

.... 1988. **El-Geili, the History of a Middle Nile Environment, 7000 B.C. A.D. 1500,** Cambridge Monographs in African Archaeology 29. BAR International Series 424. Oxford.

.... 1994. "New Methods of Data Collection and Analysis in Sudanese Prehistoric Archaeology". In: F. **Geus (ed.): Nubia Thirty Years Later. Prepublication of Main Papers, Society For Nubian Studies,** Eighth International Conference 11-17 September. Lille.

Coppa, A. 1988. "Changing Dietary Patterns at Geili". In: I. Caneva (ed.), **El Geili, The History of a Middle Nile Environment 7000 BC-Ad 1500,** Cambridge Monographs in African Archaeology. BAR International Series. 424. PP. 275-302.

Dunham. D. 1950. **The Royal Cemeteries of Kush, I. El Kurru,** Cambridge

Edwards, D. 1989. **Settlement and Archaeology in the Upper Nubia in the 1 st Millennium AD,** BAR International Series 537.

.... 1991. "Burial Customs in the Upper Main Nile: An Overview". In: W.V. Davies (ed.): **Egypt and Africa, Nubia from Prehistory to Islam,** London. PP. 57-73.

.... 1995. **The Archeology of the Merotic State. A Study of its Social and Political Structure**. PhD. Dissertation. Cambridge University.

Edwards, D. et al. 1995. "The SARS excavation at Gabati, Central Sudan. 1994-1995". **SARS Newsletter** 8: 11-27.

Emery, W. B. 1938. **The Royal Tombs of Ballana and Qustul,** Cairo.

Geus, F. 1990. Enquete sur les pratiques et coutumes funeraires meroitiques. La contribution des cimitieres non royaux, **Approche preliminaire. Revue d' Egyptologie** 40: 163-85.

.... 1991. "Burial Customs in the Upper Main Nile: An Overview". In: W.V. Davies (ed.): **Egypt and Africa, Nubia from Prehistory to Islam,** London. PP. 57-73.

Griffith,F.L.I. 1923. "Oxford Excavations in Nubia", **LAAA**.10. PP.73-171.

Kendall. T. 1999. The Origin of the Napatan State. El Kurru and the Evidence for the Royal Ancestors. **Meroitica** 15. 3-118. Berlin.

Krzyzaniak, L. 1992. "Some Aspects of the Later Prehistoric Development in the Sudan as seen from the Point of View of the Current Research on the Neolithic". In: Ch.Bonnet (ed.): **Études nubiennes. Conférence de Genève, Actes du VIIe Congrès International d'Études Nubiennes 3-8 Septembre 1990**. Vol. I, Genève. PP. 267-273.

Lenoble, P. and Sharif, N.M. 1992. Barbarians at the Gates? The Royal Mounds of El Hobagi and the "End of Meroe", **Antiquity**, 66. 626-635.

Nordstrom, H. 1972. **Neolithic and A-Group sites,** Scandinavian University Books, Stockholm.

Reinold, J. 1987. "Les fouilles pré-et proto-historiques de la Séction Française de la Direction des Antiquités du Soudan: les campagnes 1984-85 et 1985-86", **Archéologie du Nil Moyen** 2. Association pour la Promotion de l'Archéologie Nilotique. Lille. PP. 17-67.

.... 1991. Néolithique Soudanais: les Coutumes Funéraires. In: W.V.Davies (ed.): **Egypt and Nubia, Nubia from Prehistory to Islam,** London. British Library Cataloguing in Publication Data. London. 16-29.

Reisner, G.A. 1910. T**he Archaeological Survey of Nubia. Report for 1907-1908,** vol. I. Archaeological Report. Cairo.

.... 1919. The Discovery of the Tombs of Egyptian 25thÅ Dynasty, **Sudan Notes and Records** 2. PP: 29-35.

.... 1917. Excavations at Napata, the Capital of Ethiopia, **Bulletin of the Boston Museum of Fine Arts** 15, No. 89.

................1923. **Excavations at Kerma**, pt I-III. Cambridge .

Sadig Azhari. M, 2004. The Neolithic of Nubia and Central Sudan. An Intra-Regional Approach. Un-Published PhD Dissertation. University of Khartoum.

Shinnie. P.L. 1954. Excavations at Tanqasi, **Kush** 2. 66-85.

Simon, Ch. 1994. "Premiers Résultats Anthropologiques de la Nécropole de Kadrouka, KDK 1, (Nubie Soudanaise)". In: Bonnet, C (ed), **Actes de la Ville Conférence Internationale des ?tudes Nubiennes. Lille 11-17 Sep. 1994. II. Découvertes Archéologiques,** Université Charles-de-Gaulle. Lille III. PP. 37-53.

Smith, H. S. 1966. "The Nubian B-Group", **Kush** 14. 69-124.

Trigger, B.G. 1965. **History and Settlement in Lower Nubia,** New Haven.

Wendorf, F. 1968a.'Late Paleolithic Sites in Egyptian Nubia', in Wendorf,F (ed.), **The Prehistory of Nubia**, 791-953, Dallas

.... 1968b. 'A Nubian Final Paleolithic Graveyard near Jebel Sahaba, Sudan', in Wendorf,F (ed.), **The Prehistory of Nubia**,954-995, Dallas

Wendorf, F and Schild, R. 2004. "Late Paleolithic Warfare in Nubia: The evidence and Causes", **Adumatu**. Issue No. 10. 2004, 7-28.